جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة القادسية/ كلية الآداب

قسم اللغة العربية

الوصف في رسالة التوابع والزوابع

مشروع بحث تقدّم بهِ الطالب

(حيدر علي ديبس)

إلى قسم اللغة العربية، كلية الآداب، لنيل شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها

إشراف

أ. د. شيماء خيري فاهم

١٤٣٩هـ ٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم

درجات والله بما تعملون خبيرا

صدق الله العظيم

المجادلة: ١١

المقدمة:

أن الحمد لله، وصف نفسه بنعوت الكمال، ليس كمثل شيء، وهو السميع البصير، والصلة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد الموصوف بالخُلُق العظيم، وعلى آلهِ وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الوصف من الأغراض الأصيلة في الأدب العربي، حيث طرق الشعراء والأدباء به كل ميدان قرب من حسهم وإدراكهم، أو أقام في تصورهم، يتناول هذا البحث الوصف في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي، وارتأينا أن يكون البحث على تمهيد وثلاثة مباحث يتصدرها مقدمة وتليها خاتمة.

حيث تحدثت في التمهيد عن حياة الأديب ابن شهيد الأندلسي وعصره وثقافته، وفي المبحث الأول تحدثت عن الوصف في اللغة والاصطلاح،.

أما المبحث الثاني فكان الحديث فيه عن رسالة التوابع والزوابع وقيمتها الأدبية، وكان المبحث الثالث عن أنواع الوصف في رسالة التوابع والزوابع، فأورت فيه أمثلة من الرسالة عن كل نوع ذكرته، من وصف للطبيعة والحيوان والإنسان والخمر، وتضمنت الخاتمة عرضاً لأهم النتائج التي ضمها البحث، ومشكلة هذا البحث تكمن في عدم توفر المصادر الكافية عن الوصف في رسالة التوابع والزوابع، وإني إذ أضع ثمرة جهدي المتواضع أتقدم بالشكر والعرفان لمشرفتي على البحث الأستاذة الدكتورة(شيماء خيري فاهم) وهي تمد لي يد العون، وتيسر لي سبل الحصول على المصادر،

وترفدني بالمعلومات القيّمة، فلها جزيل الشكر والامتنان، وبعد فهذا جهد المقل المتواضع، فإن أصبت فبتوفيق من الله، وإن أخطأت فحسبي أنني حاولت واجتهدت

والله ولي التوفيق

الإهداء:

لكل من علمني وأزال غيمة جهل مررت بها

إلى القمر....أبي

إلى الشمس....أمي

لكل من أعاد رسم ملامحي.. وصحح عثراتي

التمهيد:

ابن شهيد الأندلسي: حياته وعصره

هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد أبو عامر أشجعي النسب من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك يوم المرج وهذا الوضاح هو جد بني وضاح من أهل مرسية وإليه ينتسبون، فبنو وضاح من أشجع، وأشجع من قيس عيلان بن مضر([1])، وأبو عامر هذا من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة وله حظ في ذلك بسبق فيه، ولم ير لنفسه في البلاغة أحداً يجاريه([2])، وأبو عامر سليل أسرة عرفت بالوزارة والرياسة، وكان أبوه عاملاً

---

[1] بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، أبو جعفر الضبي: ١٩١

[2] نفسه: ١٩١.

للمنصور ابن أب عامر بشرق الأندلس في لإقليم بلنسية، وله مكانة كبيرة عند الحاجب، وقد ولد أحمد بن شهيد في بيت أبيه بقرطبة سنة ٣٨٢هـ ونشأ في أحضان النعمة، وتربى على مهاد الجاه، فقد كان البيت الذي ينتمي إليه بيت ثراء ونفوذ وسلطان([١])، انعكست نشأته الأولى على حياته فيما بعد فمال للهو والبطالة وأسرف في الكرم إلى حد المبالغة ، إلا أنه بقى على شيء من عزة النفس والكبر وذلك لنسبه الرفيع ومال إلى الفكاهة والهزل على نحو ما يصوره أدبه([٢]) كان عنده نهم للأدب والمعارف، درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة([٣])، بدأ بقول الشعر في مرحلة باكرة، وسرعان ما أشتهر أمره كأديب لا يقتصر على قول الشعر وإنّما يزاول كتابة النثر ويتعرض لبعض قضايا النقد أيضاً([٤])، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأترابه من الشباب القرطبيين المتأدبين أمثال ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبي عامر بن المظفر وابن عمه المؤتمن عبد العزيز([٥]) تفاعل مع أحداث عصره وأبناء زمانه تفاعلاً شديداُ، فقد صور لنا الفتنة في قرطبة والحياة الأدبية فيها حتى توفي سنة ٤٢٦هـ، بعد معاناته سبعة أشهر من مرض الفالج([٦])، كان أدبه مقسّماً بين خمريات ولهو ومجون، ومجاملة وترض للحاكمين، وهجاء وتجريح للمعادين، امتلأت حياة ابن شهيد بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق في الأدب نثراً وشعراً([٧]) أما شعره فلم يؤثر عنه

---

[١] ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل: ٣٦٨.

[٢] الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت: ١٥٠-١٥١.

[٣] ينظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف: ٤٤٩.

[٤] الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل: ٣٦٩.

[٥] تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف: ٤٥٠.

[٦] الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت: ١٥٠

[٧] تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف: ٤٥٠.

مجموعاً في ديوان يضم شتاته، وإنما خلفه قصائد ومقطوعات وأبياتاً مفرقة، في رسالة التوابع والزوابع وفيما نقل أصحاب كتب الأدب والتراجم ممن تناولوه بالحديث، كابن بسام وابن خاقان والثعالبي، والذي يدل عليه ما أثر عن ابن شهيد من شعر، أن الرجل كان أصيل الملكة غزير النتاج مرن الشاعرية ، فهو قد قال الشعر في أكثر الأغراض وخاصة الطبيعة والخمر والغزل، وهو لم يلزم اتجاهاً معيناً، وإنما سار في كل الاتجاهات حسب الأغراض والملابسات والمواقف([1])، فمن شواهد قدرته الفائقة على التصوير، قوله في سهولة لفظ وبساطة معنى وخفة روح([2]):

سهر الحيا برياضها فأسالهـــا والنور نائـــم

حتى غدت زهراتها كالغيد باللجج العوائـــم

من ثيبات لم تُبل كشف الخدود ولا المعاصم

وصغار أبكار شكت خجلاً فعـــاذت بالكمائـــم

وردٌ كما خجلت خدو د العين من لحظات هائم

وشقيق نعمان شكت صفحاته من لطم لاطـــم

وغصون أشجار حكت رقص المآتم للمـــآتـــم

كما وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال برز فيها شأوه، وأبقاها الناس خالدة بعده، ومن حسنات رسائله أنها تضيء جانباً من حياته لم يأبه له المؤرخون، فبدت من خلالها علاقاته السياسية والأدبية وصداقاته وعداواته، ووفاؤه

---

[1] الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل٣٧٢

[2] نفسه: ٣٧٢.

لأولياء نعمته، ومودته للأصحاب والخلان وحدته على الخصوم والحساد، وسلاطة لسانه في السخر والتعريض وصريح الهجاء([1]).

ويلاحظ أن ابن شهيد كان واحدا ممن كتب لهم التفوق والإبداع في ميادين الشعر والنثر والنقد، وتبدو براعته في النثر والنقد في آثاره الأدبية التي تركها، ومنها كتاب حانوت العطّار، ورسائل متفرقة فضلاً عن رسالة التوابع والزوابع([2]).

المبحث الأول

[1] التوابع والزوابع، الكتاب الأول ابن شهيد الأندلسي: حياته وأدبه، بقلم بطرس البستاني: ٤٨

[2] الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت: ١٥١

الوصف في اللغة والاصطلاح

الوصف لغةً:

ورد في معجم العين: (وصف: الوصف: وصفُكَ الشيءَ بحِلْيته ونَعْته. ويقال للمُهْر اذا تَوَجَّه لشيءٍ من حُسْنِ السِّيرة: قد وَصَفَ، معناه: أَنّه قد وَصَفَ المَشْيَ أي وَصَفَه

لِمنْ يُريد منه، ويقال: هذا مُهْرٌ حين وَصَفَ، ويقال للوصيف: قد أوصَفَ، وأوصَفَتِ الجاريةُ. ووَصيفٌ ووُصَفاءُ ووَصيفةٌ ووَصائِفُ)[1].

وفي تاج اللغة وصحاح العربية(وصف: وصفت الشئ وصفا وصفة. والهاء عوض من الواو، وتواصفوا الشئ من الوصف. واتصف الشئ، أي صار مُتَواصَفاً. قال طرفة بن العبد: إنَّي كفانيَ من أمرٍ هَمَمْتُ به جارٌ كَجارِ الحُذافيِّ الذي اتَّصَفا أي صار مَوصوفاً بحسن الجوار)([2])وفي مختار الصحاح (وص ف: (وَصَفَ) الشَّيْءَ مِنْ بَابِ وَعَدَ، وَ (صِفَةً) أَيْضًا. وَ (تَوَاصَفُوا) الشَّيْءَ مِنَ الْوَصْفِ. وَ (اتَّصَفَ) الشَّيْءُ صَارَ (مُتَوَاصِفًا) . وَبَيْعُ (الْمُوَاصَفَةِ) بَيْعُ الشَّيْءِ بِصِفَةٍ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ. وَ (الْوَصِيفُ) الْخَادِمُ غُلَامًا كَانَ أَوْ جَارِيَةً وَالْجَمْعُ (الْوُصَفَاءُ) . وَرُبَّمَا قِيلَ لِلْجَارِيَةِ: (وَصِيفَةٌ) وَالْجَمْعُ (وَصَائِفُ)، وَ (اسْتَوْصَفَ) الطَّبِيبَ لِدَائِهِ سَأَلَهُ أَنْ يَصِفَ لَهُ مَا يَتَعَالَجُ بِهِ)([3]).

وجاء في لسان العرب(وصف: وَصَفَ الشيءَ لَهُ وَعَلَيْهِ وَصْفاً وصِفَةً: حَلَّاه، وَالْهَاءُ عِوَضٌ مِنَ الْوَاوِ، وَقِيلَ: الوَصْف الْمَصْدَرُ والصِّفَةُ الحِلْية،:والوَصْف وَصْفُكَ الشَّيْءَ بحِلْيته ونَعْته. وتَوَاصَفُوا الشيءَ مِنَ الْوَصْفِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى مَا تَصِفُونَ؛ أَراد مَا تَصِفُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ. واسْتَوْصَفَهُ الشيءَ: سأَله أَن يَصفه لَهُ. واتَّصَفَ الشيءُ: أَمكن وصْفُه)([4])، (ووصَفَهُ يَصِفُه وصْفاً وصِفَةً: نَعَتَه، فاتَّصَفَ، والوَصَّافُ: العارِفُ بالوصف، وتَواصَفُوا الشيءَ: وصَفَه بعضُهم لِبعضٍ)([5]).

هذا ما جاء في معاجم اللغة عن معنى كلمة وصف أما

---

[1] العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة (وصف): ٧/ ١٦٢

[2] تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري: ٤/ ١٤٣٩

[3] مختار الصحاح، الرازي: ٣٤٠

[4] لسان العرب، ابن منظور: ٣٥٦/٩.

[5] القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ٨٦٠.

اصطلاحاً:

فالوصف كما يقول قدامة بن جعفر (إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات)([1])، وفي تعريف أحمد الهاشمي له هو(عبارة عن بيان الأمر باستيعاب أحواله وضروب نعوته الممثلة له وأصوله ثلاثة: الأول: أن يكون الوصف حقيقياً بالموصوف مفرزاً له عما سواه، الثاني: أن يكون ذا طلاوة ورونق، الثالث: أن لا يخرج فيه إلى حدود المبالغة والإسهاب ويكتفي بما كان مناسباً للحال)([2]).

وقال عنه بعض المتأخرين: أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً. وأصل الوصف الكشف والإظهار، يقال: قد وصف الثوب الجسم، إذا نم عليه ولم يستره([3])، والوصف إنشاء يُراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو مان للقارئ أو المستمع، وفي العمل الأدبي يخلق الوصف البيئة التي تجري فيها أحداث القصص([4]).

وهو تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال، وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلاً يصل بك إلى الأعماق، إلى غير هاتيك العناصر التي قد يحتاج وصفها إلى ذوق فني ، وتتطلب الإحاطة بنواحيها، والسمو إلى آفاقها وجداناً شاعراً، وإحساساً مرهفاً، وذوقاً سليماً، ككل ما يملك على الإنسان المرهف الحس إحساسه، ويثير فيه شعوره ووجدانه([5]).

---

[1] نقد الشعر، قدامة بن جعفر: ٤١.

[2] جواهر الأدب في إنشائيات وأدب لغة العرب، أحمد الهاشمي: ١/ ٣٢٦.

[3] العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني: ٢٣٥/٢.

[4] معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه وكامل المهندس: ٣٣٢

[5] الوصف في لشعر العربي ، عبد العظيم علي قناوي: ١/ ٤٢.

يعد الوصف من الأغراض التقليدية المتجددة التي تعبر بها الفطرة الإنسانية عما تريد أن تنقله وما مرّ بخبرتها، فهو وسيلة متطورة لدى الأمم لتنقل أحاسيسها وانطباعاتها تجاه ما حولها، وهو جزء طبيعي من منطق الإنسان؛ لأنّ النفس محتاجة من أصل الفطرة إلى ما يكشف لها من الموجودات، وما يكشف للموجودات منها، ولا يكون ذلك إلا بتمثل الحقيقة، وتأديتها إلى التصور في طريق من طرق السمع والبصر والفؤاد([1])، فقد قالوا في الوصف (أحسن الوصف ما نُعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع)([2])والوصف كما يقول الرافعي (طريقة اتبعها العرب في أوصافهم بدلالة الفطرة القوية، والطبيعة الراقية، وقد كان سبباً في تطبيقهم وصف الحيوان والنبات، وغيرهما على علومهم ومعارفهم التي خلدوها بذلك في أشعارهم؛ لأن أخص مزايا العلم التدقيق والاستقصاء حتى قال الجاحظ كل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدنا قريبا منه في أشعا العرب والأعراب)([3]).والأديب العربي فنانٌ مبدع سار في ركب العباقرة الإنسانيين، فرسم ما رأى، وصوّر ما شاهد، ووصف ما أحس، فترك في المتحف الأدبي صفحات خالدة على اختلاف العصور تقف لمتاحف الرسامين، والنحاتين، والمصورين في إبداع الخطوط، وقوة التقليد والمحاكاة، ونقل الصوت والحركة والنشاط، ورسم الحديث واللون والظل، سواء أكان في رسم الطبيعة، أم في تصوير الإنسان والحيوان، أم في الأخلاق والطباع والعادات، وقد استطاع العرب أن يحملوا لغتهم كلّ ما تحمل من الفنون الجميلة([4])، وقد يكون الفن في أول الأمر ساذجاً فطرياً، يعوزه الصقل والتقويم،

---

[1] ينظر: الوصف في شعر عبد الله بن المعتز، ليلى سالم محمد: ٤.

[2] العمدة، ابن رشيق القيرواني: ٢/ ٢٩٤.

[3] الوصف في شعر عبد الله بن المعتز، ليلى سالم محمد: ٥.

[4] ينظر: الوصف في شعر الملك الأندلسي يوسف الثالث، هبه إبراهيم منصور اللبدي: ٦.

وتتقصه الدقة والعمق، ولكنه ما يلبث بعد حين أن يصقل ويكمل ويوفى على التمام([1])، وأفق الوصف أوسع من أن يحاط به، والموصوفات أكثر من أن تحصى، والمعيار الذي يحتكم إليه فيما يصلح للرسم وفيما لا يصلح هو موهبة الأديب، لا حجم الموصوف وشكله، ولا ما يخلع عليه الناس من قيم الأخلاق وشرف المنزلة وقسمات الجمال، كان الوصف من فنون الشعر التي تجددت في القرن الثاني واتسعت دائرتها إلى حد بعيد في وصف الماديات والمعنويات على السواء، ووصف المحسوس وغير المحسوس، كما اتخذ الوصف ألواناً كثيرة، منها شمول النظرة والاستقصاء، والميل إلى السخرية والفكاهة والنزوع إلى المجون أحياناً، فبعد أن كان الوصف تقليدياً يصور الجانب العنيف من الطبيعة أو الجانب الوحشي، أصبح وصفاً وجدانياً يصور جميع نواحيها وبخاصة الرقيق الباسم، فالوصف أصبح اكثر ارتباطاً بالوجدان حين يتناول الطبيعة الهادئة ومظاهرها المختلفة([2]).

---

[1] الوصف في الشعر العربي، عبد العظيم قناوي: ٣٢.

[2] ينظر: الوصف في شعر عبد الله بن المعتز، ليلى سالم محمد: ٩.

المبحث الثاني

رسالة التوابع والزوابع: أهميتها وقيمتها الأدبية

شجرة الفكاهة أو التوابع والزوابع، والتابع في الرسالة الجني والزوبعة الشيطان، هي رحلة خيالية في عالم الجن قام بها أبو عامر في صحبة تابعه "زهير بن نمير" الذي يلهمه الأشعار، وقد التقى خلال هذه الرحلة بشياطين الشعراء والكتاب من عمالقة الأدب العربي القديم، وانتزع منهم اعترافات بتفوقه في الكتابة وفن القريض، واتصل

بنقّاد الجن في نواديهم، وقابل أدباء من حيوانهم، واستمع لأبيات من الغزل في مباراة أدبية طريفة بين بغل وحمار، إنها قصة تنتمي إلى جنس القصص الذي يتجاوز عالم الحسّ إلى ما وراءه، متخذاً مغامراته في عالم خيالي مسحور، مبدعاً بناءه الفني من غرائب التصورات وعجائب المشاهدات([١]).

حفظت رسالة التوابع والزوابع مجتزأة في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبن بسّام الأندلسي، واستخلص بطرس البستاني نص الرسالة من كتاب الذخيرة ([٢]).

في **الفصل الأول** من الرسالة يلتقي الشاعر بتوابع الشعراء بعد أن يرحل مع تابعه على متن جواده كالطائر يجتاب الجو فالجو ويقطع الدو فالدو، حتى ينزل أرضاً متفرعة الشجر عطرة الزهر يعلم من صاحبه أنها أرض الجن، فيتجول في أودية تلك الأرض يتعرف على توابع الشعراء من أمثال امرئ القيس وطرفه بن العبد وقيس بن الخطيم وأبي تمام والبحتري واي نواس وغيرهم، يجري فيها لقائه بهم محاورات ومناظرات شعرية ينتزع فيها إعجابهم بشعره ويحصل على إجازة برواية أشعارهم([٣]).

والفصل الثاني يلتقي فيه بتوابع الكتّاب ويسميهم الخطباء، فيلتقي بمجلس واحد بتابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب، ثم يقرأ عليه رسالته في صفة البرد والنار، ورسالته في الحلواء، ثم ينتقل إلى وصف برغوث، بعدها يلتقي بتابع بديع الزمان الهمداني ، وعلى هذا المنوال يحظى بإعجاب الكتاب وإجازتهم إياه([٤]).

[١] ينظر: تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهيلي: ٨٥.

[٢] ينظر: ابن شهيد ورسالة التوابع والزوابع، ياكوها منانتيلا، تر: سليمان الطعان: ٦٣.

[٣] ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت: ١٥٣.

[٤] ينظر: نفسه: ١٥٤.

وفي **الفصل الثالث** ينتقل ابن شهيد مع تابعه إلى مجلس من مجالس الجن حيث يتذاكر معهم ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن زاد فأحسن الأخذ ومن قصر في الأخذ، ويرود أمثلة ونصوصاً شعرية لشعراء أمثال الأفوه الأودي والنابغة الذبياني وأبي نواس، وصريع الغواني، وفي هذا القسم تبدو براعة ابن شهيد في تتبع المعاني لدى الشعراء وإسهامه كذلك([1]).

والفصل الرابع يتألف من مشهدين ، يلتقي في الأول بقطيع من حمر الجن وبغالهم، حيث يحتكمون إليه في قصيدتين لبغل وحمار فيحكم بينهما.

وفي الثاني يقف على بركة ماء يحادث أوزة بيضاء شهلاء، يتضح أنها تابعة من توابع شيخ من مشيخة الإنس، يداخلها عجب بنفسها، ويدرو حوار بينهما في تحد لا يلبث أن يتحول إلى أنس ومودة حيث يودعها إلى عالم الإنس([2]).

إن رسالة التوابع والزوابع تعد أول عمل فني في الأدب العربي يتجاوز عالم الحس إلى ما وراءه، وقد ألفها أبو عامر ليرد على خصومه وحساده من أدباء الأندلس الذين جحدوا قدره حسداً من عند أنفسهم، ولما ضاق به عالم الواقع هرب إلى عالم الخيال، وهناك استطاع أن ينتزع لنفسه شهادات بتفوقه واعترافات بامتيازه من آساطين الشعر وجهابذة الكتّاب، وهكذا رحل أبو عامر إلى هذا العالم الغريب ليحقق في عالم الخيال ما لم يستطع تحقيقه في عالم الواقع، وليشبع خصومه وحساده هزءً وسخرية وتهكما، وليشبع في نفسه غريزة الاستعلاء والفخار والمطاولة([3]).

---

[1] ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت: ١٥٤.

[2] ينظر: نفسه: ١٥٤

[3] ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت: ٩٠.

تتجلى أهمية هذه الرسالة في جوانب كثيرة في مقدمتها مضمون الرسالة، إذ لا يستطيع أي باحث أن ينكر أن هذه الرسالة تعد بكراً في مجال الرسائل الأدبية تفتق عنها ذهن ابن شهيد، وتبدو قيمتها من حيث أسلوبها الأدبي المتميز الذي تضمّن ضروباً من المزج بين النثر والشعر، وبأسلوب قصصي، يتضمن أدب الحوار والمساجلة، واستنطاق الحيوان، مع طرائف مستملحة تستهوي القارئ وتستميله([١]).

---

[١] نفسه: ١٥٥

المبحث الثالث

أنواع الوصف في رسالة التوابع والزوابع

يرى بعض النقاد، والأدباء القدماء أنّ الوصف في كل شئ نوعان: خيالي وحسّي، فالوصف الخيالي يعتمد التشبيه والاستعارة، ويحاول أن يستحضر الموصوف من

الذاكرة، أما الوصف الحسي فهو تصوير للموصوف([1])، وبما أن الوصف هو من أهم أساليب التعبير القديمة فأنّ أغلب أوصافهم جاءت حسية مادية بعيدة كل البعد عن التجريد والخيال، وهي بالتالي محاكاة للواقع، ولابد لكل أمر حتى يصل إلى مستوى عالٍ أن يمر بعدة مراحل، كذلك الأمر بالنسبة لفن الوصف، فهو لم يكن منذ نشأته على هذهِ الصورة التي نراها اليوم، وإنما مرّ بعدة مراحل من التطوير والإضافة، وكل عصر أو فترة زمنية مختلفة كانت تضيف على هذا الفن تطوراً جديداً، فهو في العصر الجاهلي غير ما نجده في العصر الإسلامي، حتى إذا ما وصلنا إلى العصر العباسي ومن بعده الأندلسي، نراه قد بلغ مرتبة عالية من الجودة والجمال([2])، تعددت موضوعات الوصف وتنوعت في رسالة التوابع والزوابع، فهناك وصف للمكان والحيوان والشخصية.

وصف الطبيعة:

---

[1] الوصف في شعر الملك الأندلسي يوسف الثالث، هبه إبراهيم منصور: ١٣.

[2] ينظر: نفسه: ١٣- ١٤.

كان للطبيعة بجمالها وبهجتها وبدائع رياضها، وأزهارها، وجداولها، حظ وفير وأثر كبير في شعر ونثر ابن شهيد الأندلسي، وهذا ما نلمسه في التوابع والزوابع، فقد وصف لنا الرياض الوارفة والمياه الجارية، والبساتين والقصور والمناظر الخلابة ومن أوصاف الطبيعة التي وردت في رسالته قوله: (وسار بنا كالطائر يجتابُ الجوَّ فالجوَّ، ويقطعُ الدَّوَّ فالدَّوَّ، حتى التمحتُ أرضاً لا كأرضنا، وشارفتُ جواً لا كجوّنا، متفرع الشجر، عطر الزَّهر؛ فقال لي: حللتَ أرض الجن أبا عامر)([1]).

وفي لقاء تابع طرفة وصف للمكان قال فيه: (فجزعنا وادي عُتيبة، وركضنا حتى انتهينا إلى غيضةٍ شجرُها شجران: سامٌ يفوحُ بهاراً، وشحرٌ يعبق هندياً وعاراً. فرأينا عيناً معينةً تسيل، ويدُورُ ماءها فلكياً ولا يحُل)([2]).

وفي وصفه لعين ماء حين التقى بتابع أبي تمام قال: (ثمَّ انصرفنا، وركضنا حتى انتهينا إلى شجرةٍ غيناء يتفجرُ من أصلِها عينٌ كمقلةٍ حَواء. فصاح زُهير: يا عتابُ بن حبناء، حلَّ بك زُهير وصاحبهُ، فبعمروٍ والقمر الكّالِع، وبالرُّقعةِ المفكوكةِ الطّابع، إلاَّ ما أريتنا وجهك! فانفلق ماء العين عن وجهِ فتىً كفِلقةِ القمر، ثم اشتقَّ الهواء صاعداً إلينا من قعرها حتى استوى معنا فقال: حيّاك الله يا زهير، وحيّا صاحبك! فقلتُ: وما الذي أسكنك قعر هذه العين يا عتاب؟ قال: حيائي من التّحسُّنِ باسمِ الشِّعرِ وأنا لا أُحسنُه)([3]).

وفي لقاءه لتابع أبي نواس وصف للمكان (وسِرنا حتى انتهينا إلى أصل جَبل دير حَنّة، فشقّ سَمعي قرْع النواقيس، فصِحْتُ: من منازل أبي نواس، وربِّ الكعبة العَلياء!

---

[1] رسالة التوابع والزوابع، ابن شهيد الأندلسي، تح: بطرس البستاني: ٨٧.

[2] نفسه: ٨٩.

[3] نفسه: ٩٤

وسِرنا نجتاب أدياراً وكنائس، وحانات، حتى انتهينا إلى ديرٍ عظيمٍ تَعبق روائحه، وتَصوكُ نوافِحه... ونزلنا وجاؤوا بنا إلى بيتٍ قد اصطفّت دِنانه، وعكفتْ غِزلانُه، وفي فُرجته شيخٌ طويل الوجه والسَّبَلة)([١]).

وصف الحيوان:

وفي حديثه مع شيطان طرفة قال في وصف الخيل([٢]) :

وثارت بناتُ الأعوجيّاتِ([٣]) بالضُّحى ... أبابِيلَ([٤])، من أعطافِ([٥]) غير وبيلِ([٦])

مُسوَّمةً([٧]) نعتدُّها([٨]) من خِيارها، .... لِطردِ قنيصٍ، أو لطردِ رعيلِ

إذا ما تغنّى الصَّحبُ فوق متونِها .... ضُحيناً، أجابت تحتهم بصهيلِ

دُوسُ بها أبكارَ نورٍ كأنّه .... رِداءُ عرُوسٍ أوذنتُ بحليل

رَمينا بها عُرضَ([٩]) الصُّوارِ([١٠]) فأقعصت([١١])...... أغنَّ([١]) قتلناهُ بغيرِ قتيلِ

---

[١] نفسه: ١٠٠.

[٢] التوابع والزوابع: ٩٠

[٣] الخيول الكريمة.

[٤] متفرقة فرقاً

[٥] قارعة الطريق

[٦] المرعى الوخيم

[٧] الخيول المعلمة بعلامات الغزو

[٨] نعدها.

[٩] الجانب

[١٠] القطيع من البقر الوحشي

[١١] قتلت

وبادَرَ أصحابي النُّزولَ، فأقبلت.... كراديسُ من غض الشِّواء نشيلِ([2])

وفي صفة ثعلب قال:

(وحتى تصف ثعلباً فتقول: أدهى من عمرو، وأفتكُ من قاتل حُذيفة، ابن بدر؛ كثيرُ الوقائع في المسلمين، مُغرى بإراقة دماء المؤذنين؛ إذا رأى الفُرصة انتهزها، وإذا طلبته الكُماةُ أعجزها؛ وهو مع ذلك يُقراطُ في إدامه، وجالينوسُ في اعتدال طعامه، غداؤه حمامٌ أو دجاج، عشاؤه تدرُج أو دُرَّاج)([3])

وفي وصف برغوث قال:

أسودُ زنجي، وأهيٌّ وحشي؛ ليس بوانٍ ولا زُميل، وكأنه جُزء لا يتجزأ من ليل؛ أو شُونيزة، أوثقتها غريزة؛ أو نقطةُ مِداد، أو سويداءُ قلبِ قُراد؛ شُربه عب، ومشيه وثب؛ يكمنُ نهاره، ويسري ليله؛ يدارك بطعنٍ مؤلم، ويستحلُّ دم كل كافرٍ ومُسلم؛ مُساورٌ للأساورة، يجُرُّ ذيله على الجبابر يتكفر بأرفع الثياب، ويهتكُ ستر كل حِجاب، ولا يحفل ببوَّاب؛ مناهل العيش العذبة، ويصلُ إلى الأحراج الرَّطبة، لا يمنعُ منه أمير، ولا ينفعُ فيه غيرةُ غيور، وهو أحقر كل حقير؛ شرُّه مبثوث، وعهده منكوث، وكذلك كلُّ بُرغُوث، كفى نقصاً للإنسان، ودلالةً على قُدرةِ الرَّحمَن([4]).

وفي وصف الإوزة قال:

---

[1] الظبي

[2] اللحم الذي تتشله بيدك من القدر بلا مغرفة.

[3] التوابع والزوابع، ابن شهيد الأندلسي: ١٢٣.

[4] نفسه: ١٢٢.

(كانت في البركة بقُربنا إوزَّةٌ بيضاء شهلاء، في مثل جُثمانِ النّعامة، كأنما ذُرَّ عليها الكافور، أو لبست غلالةً من دمقس الحرير، لم أر أخفَّ من رأسها حركة، ولا أحسن للماء في ظهرها صباً، تثني سالفتها، وتكسر حدقتها، وتُلولبُ قمحدوتها، فترى الحُسن مستعاراً منها، والشكل مأخوذاً عنها... ثم رفعت وقد اعترتها خفةٌ شديدةٌ في مائها، فمرَّةً سابحة، ومرةً طائرة، تتغمسُ هنا وتخرجُ هناك، قد تقبب

جناحاها، وانتصبت ذُناباها، وهي تُطرب تطريب السرور؛ وهذا الفعل معروفٌ من الإوز عند الفرح والمرح. ثم سكنت وأقامت عُنقها، وعرَّضت صدرها، وعلمت بمجدافيها، واستقبلتنا جائيةً كصدر المركب)([1]).

وصف الأشخاص: حفلت رسالة التوابع والزوابع بوصف الشخصيات من تابعي الشعراء والكتّاب، ومن ذلك وصفه لتابعه زهير بن نمير، قال فيه: (فإذا أنا بفارسٍ ببابِ المجلِس على فرسٍ أدهم كما بَقَل وجهُه، قد اتكأ على رُمحه، وصاح بي: أعجزاً يا فتى الإنس؟ قلتُ: لا وأبيك، للكلامِ أحيان، وهذا شأنُ الإنسان! قال لي: قُل بعده:

كمِثلِ مَلالِ الفتى للنعيم، ... إذا دامَ فيه، وحالِ السُّرورِ

فأثبتُّ إجازته، وقلت له: بأبي أنت! من أنت؟ قال: أنا زُهيرُ ابن نُمير من أشجعِ الجنِ. فقلتُ: وما الذي حداكَ إلى التصوُّرِ لي؟ فقال: هوى فيك، ورغبةٌ في اصطفائك. قلت: أهلاً بك أيها الوجهُ الوضاح، صادفن قلباً إليك مقلوباً، وهوى نحوك مجنوباً)([2]).

وفي وصف تابع امرئ القيس قال: (فظهر لنا فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زُهير، وحيّا صاحبك أهذا فتاهُم؟ قلتُ: هو هذا، وأيُّ جمرةٍ يا

---

[1] التوابع والزوابع: ١٤٥-١٤٧

[2] التوابع والزوابع: ٨٥.

عتُيبة! فقال لي: أنشد؛ فقلتُ: السيدُ أولى بالإنشاد. فتطامح طرفُه، واهتزَّ عطفه، وقبض عنانَ الشقراء وضربها بالسّوط، فسمت تُحضر طُولاً عنّا، وكرَّ فاستقبلنا بالصَّعدةِ هازاً لها، ثم ركزها وجعل يُنشد: سما لك شوقٌ بعدما كان أقصرا)([1]).

وفي وصف تابع طرفة قال: (يا عنترُ بن العجلان، حلَّ بك زهيرٌ وصاحبه، فبخَولة، وما قطعت معها من ليلة، إلاَّ ما عرضت وجهك لنا! فبدا إلينا راكبٌ جميلُ الوجه، قد توشح السّيف، واشتمل عليه كساء خزّ، وبيده خطّيّ)([2]).

وفي وصف الرهبان: أقبلتْ نحونا الرَّهابين، مُشدّدة بالزنانير، قد قبضتْ على العَكاكيز، بِيضَ الحواجب واللحى، إذا نظروا إلى المرء استحيا، مُكثِرين للتسبيح، عليهم هَدْيُ المسيح. فقالوا: أهلاً بكَ يا زهير من زائر، وبصاحبك أبي عامر! ما بُغيتُك؟ قال: حسين الدِّنان. قالوا: إنه لفي شُرب الخمرة، منذ أيام عشرة، وما نُراكما منتفعين به. فقال: وعلى ذلك. ونزلنا وجاؤوا بنا إلى بيتٍ قد اصطفّت دِنانه، وعكفتْ غِزلانُه، وفي فُرجته شيخٌ طويل الوجه والسَّبَلة، قد افترش أضغاث زَهر، واتّكأ على زِقّ خمر، وبيده طَرْجهارة، وحواليه صِبيةٌ كأظْبٍ تَعطو إلى عَرارة. فصاح به زهير: حيّاك الله أبا ٱلإحسان! فجاوب بجوابٍ لا يُعقل لغَلبة الخمر عليه. فقال لي زهير: اقرعْ أُذُن([3]).

وقال في وصف صاحب الأفليلي: (فقام إليهما جنيٌّ أشمط ربعةٌ وارمُ الأنف، يتطالعُ في مشيته، كاسراً لطرفِه، وزاوياً لأنفه، وهو ينشد:

---

[1] التوابع والزوابع: ٨٨.

[2] نفسه: ٩٠.

[3] نفسه: ١٠١.

قومٌ همُ الأنف والأذنابُ غيرُهُم، ... ومن يُسوي بأنفِ الناقة الذَّنبا)([1]).

وصف الخمرة والخمارات:

وصف الخمرة والحديث عنها موضوع قديم في الشعر العربي، وكان لها نصيب من رسالة التوابع والزوابع إذ قال ابن شهيد فيها:

ولرُبَّ حانٍ قد أدرتُ بديره ... خَمْر الصِّبا مُزجَتْ بصَفْو خُمورهِ

في فِتيةٍ جعلوا الزِّقاق تِكاءَهم، ... مُتصاغِرين تخشُّعاً لكبيرهِ

والى عليَّ بطَرْفه وبكفّه، ... فأمال مِنْ رأسي لِعَبِّ كبيرهِ

وترنَّم الناقوس عند صَلاتهم، ... ففتحْتُ من عيني لرجع هَديرهِ

يُهدي إلينا الراحَ كلُّ مُعصفَري، ... كالخِشف خَفَّره التِمامُ خَفيرهِ([2])

ومن هذا الوصف ما جاء على لسان تابع أبي نواس الذي أنشد:

يا دير حَنّة من ذات الأكَيراح... من يَصحُ عنكَ فأني لستُ بالصاحي

يَعتادُهُ كلُّ مَحفوفٍ مَفارِقُهُ .... من الدهان، عليه سَحْقُ أمساحِ

لا يدلِفون إلى ماءٍ بآنيةٍ، .... إلاّ اغترافاً من الغُدران بالراحِ([3])

---

[1] نفسه: ٢٠.

[2] نفسه: ١٠٢

[3] نفسه: ١٠٢

الخاتمة:

وبعد:

فقد تبيّن من خلال هذا البحث عدة نتائج مهمة يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- قصة التوابع والزوابع رحلة خيالية في عالم الجن قام بها أبو عامر في صحبة تابعه الجني زهير بن نمير الذي يلهمه الأشعار.

٢- إنّ قصة التوابع والزوابع لأبي عامر(أحمد بن عبد الملك) أول عمل أدبي في لغة العرب اتخذ ما وراء الحس مسرحاً لأحداثه.

٣- أبدع ابن شهيد الأندلسي في مجال النثر والشعر، وجاءت رسالته الموسومة بـ(التوابع والزوابع) جامعة لهذين الأدبين.

٤- الوصف من الموضوعات التي أبدع فيها ابن شهيد الأندلسي.

٥- تنوع الوصف في رسالة التوابع والزوابع بين وصف للطبيعة والخمر والحيوان والإنسان.

المصادر والمراجع:

١–ابن شهيد ورسالة التوابع والزوابع، ياكوها منانتيلا، تر: سليمان الطعان، مجلة المعرفة، العدد٦١٠، تموز ٢٠١٤.

٢– الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، كورنيش النيل، ١٩٨٥.

٣– الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت، مؤسسة السياب، لندن، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢.

٤– بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، أبو جعفر الضبي: ١٩

٥– تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧.

٦–تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والإمارات: الأندلس)، شوقي ضيف، دار المعارف، كورنيش النيل، ١٩٨٩.

٧– تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهيلي، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، ١٩٧٨.

٨– التوابع والزوابع، الكتاب الأول ابن شهيد الأندلسي: حياته وأدبه، بقلم بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى١٩٦٧.

٩–جواهر الأدب في إنشائيات وأدب لغة العرب، أحمد الهاشمي، شرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.

١٠– العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، لمحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م

١١- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، محقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٢- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، كتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

١٣- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٤- مختار الصحاح، الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

١٥- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.

١٦- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، طبعة الجوائب - قسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.

١٧- الوصف في الشعر العربي، عبد العظيم قناوي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى ١٩٤٩.

١٨- الوصف في شعر الملك الأندلسي يوسف الثالث، هبه إبراهيم منصور اللبدي، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين، ٢٠١٢.

١٩- الوصف في شعر عبد الله بن المعتز، ليلى سالم محمد نور بابنجي، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، ١٩٨٩.